ملاحظات حول كنيسة القديس اسطفان في أُم الرصاص (ميفعة) تأريخها وأهمية زخارفها الفسيفسائية

إعداد : د. غازي بيشة

لعل من أبرز نتائج أعمال التنقيب والمسح الأثري التي تمت في الأردن خلال العقد المنصرم هي توفير المعلومات والأدلة المادية التي تلقي الأضواء على الفترة الانتقالية من العصر البيزنطي المتأخر إلى الحقبة الاسلامية، والتي تشير إلى أن هذا الانتقال كان يتصف بالمرونة والاستمرارية لا سيما فيما يتعلق بحياة السكان الاجتماعية والاقتصادية والادارية والحضارية. ومن الاكتشافات الحديثة الهامة ولأكثر من سبب هو اكتشاف كنيستين متجاورتين في أُم الرصاص شيدت أولهما (كنيسة الأسقف سرجيوس) في سنة ٥٨٧ بينما بُنيت الثانية (كنيسة القديس اسطفان) وزُخرفت أرضيتها بمكعبات الفسيفساء الملونة في سنة ٧٥٦ و ٧٨٥ ـ أي بعد سقوط الخلافة الأموية وانتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد[١] ـ. لقد أشار ناشرا هذا الاكتشاف الأب ميشيل بتشريللو والسيد تيسير عطيات، إلى أهميته ونأمل في الفقرات التالية من إبداء بعض الملاحظات التي تلقي الضوء على الاطار التاريخي العام لبناء هاتين الكنيستين والأسئلة أو القضايا التي تطرحهما.

تضم الزخارف الفسيفسائية في كنيسة القديس اسطفان ـ التي تم الفراغ منها في بداية العصر العباسي ـ نماذج معمارية لأبنية يعلو معظمها سقف جملوني ومشيدة داخل أسوار حصينة يعلوها شرافات متدرجة، ويرافق هذه الأبنية كتابات يونانية تذكر المدن التي تمثلها. من هذه المدن ثمانية تقع في فلسطين، وسبعة في الأردن، بالاضافة إلى عشرة مدن واقعة في دلتا النيل[٢]. وتبين إحدى الكتابات اليونانية العديدة المنتشرة في أرضية الكنيسة إلى أن اسم أُم الرصاص الأصلي أو القديم هو "ميفعة" أو "حصن ميفعة" التي تظهر بدورها بين مجموعة المدن الواقعة في الأردن[٣]. وتشير كتابة ثانية تقع بالقرب من المذبح في وسط حنية الكنيسة إلى أن أحد الذين ساهموا في رصف الأرضية الفسيفسائية كان يُعرف باسم (ستوراخيوس بن زادة) من حُسبان. أما في زخارف صحن الكنيسة فتبدو سيقان الكرمة التي تلتف وتلتوي لتشكل دوائر مُلئت بمناظر مختلفة مستقاة من الحياة الريفية كالزراعة والصيد وقطف العنب ونقله للعصر ثم صور الأشخاص الذين تبرعوا لبناء الكنيسة[٤]. ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن الغالبية العظمى من الصور الآدمية والحيوانية قد تعرضت للتشويه والتدمير أثناء الحملة المعروفة بحركة تحطيم الصور (ICONOC-LASM) التي سنعود للاشارة إليها في الفقرات اللاحقة. كذلك يلفت النظر في الكتابات اليونانية المرافقة للزخارف الفسيفسائية في كلتا الكنيستين (الأسقف سرجيوس والقديس اسطفان) تعدد أسماء الأعلام العربية أو التي تعود إلى أُصول آرامية مثل عبدالله، عبادة، نعوم، إلياس، أيوب، قياص، واختلاطها بالأسماء اليونانية مما يشير إلى وجود جماعة مسيحية يغلب عليهم العنصر العربي، يدير شؤونها وينظمها هيئة كنسية مؤلفة من أُسقف وقسيس وبعض المساعدين[٥].

---

١ ـ M. Piccirillo & T. Attiyat, 'The Complex of Saint Stephen at Umm Er-Rasas - Kastron Mefaa; First Compaign,' *ADAJ*, XXX (1986) p. 341-351.
تيسر عطيات، «حفرية أُم الرصاص ـ ميفعة» «حولية دائرة الآثار العامة» مجلد ٣٠ (١٩٨٦) ص : ٢٣ ـ ٢٧.

٢ ـ Piccirillo & Attiyat, p. 348-49.

٣ ـ نفس المرجع، ص : ٣٤٧، اللوحة LXXV:2.

نفس المرجع، عطيات، اللوحة ١ ـ أ.

٤ ـ نفس المرجع، ص : ٣٤٧، اللوحة LXXVI.

٥ ـ نفس المرجع، ص : ٣٤٧، ٣٤٩.
تفضل الأب بتشريللو بإعلامي بأن الاسم «بطرس العربي» الذي يرافق صورة أحد المتبرعين لكنيسة القديس اسطفان بحاجة إلى تعديل وأن القراءة الصحيحة هي Pet na Rabbous بدلاً من Petro Arabbous.

تقع أُم الرصاص أو ميفعة كما كانت تُعرف في الأصل على مسافة ٣٠ كم جنوب شرقي مأدبا، أي على تخوم الطريق التجاري الروماني المعروف باسم طريق تراجان الجديد الذي شُق في السنوات التي تلت القضاء على مملكة الأنباط سنة ١٠٦ م والذي كان يمتد من بصرى الشام شمالاً إلى أيلة (العقبة) جنوباً مروراً بفيلادلفيا (عمّان). ومن هنا تبرز أهمية موقع ميفعة الاستراتيجي الذي تطلّب بناء حصن مستطيل الشكل تبلغ أبعاده ١٥٠ × ١٢٠ م دُعمت جدرانه بالأبراج المستطيلة على مسافات منتظمة[٦]، بينما انتشرت خارج الحصن إلى الشمال منه مجموعة من المنشآت والأبنية التي تضم ستة كنائس على الأقل[٧]. ومما يؤكد الطابع العسكري للموقع هو الاشارة في بعض المصادر التاريخية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين إلى وجود وحدات عسكرية مقيمة في ميفعة[٨]. أما المصادر التاريخية والمعاجم الجغرافية العربية فقد أغفلت الاشارة إلى ميفعة إلّا فيما يتعلق بمقتل «زيد بن عمرو بن نفيل». فالبكري يذكرها كقرية من أرض البلقاء من الشام ويضيف : «ولما بلغ زيد بن عمرو بن نفيل خبر رسول الله ﷺ أقبل من الشام يريده فقتله أهل ميفعة»[٩]. أما ابن عبدالحق فيكتفي بالاشارة إليها كقرية من أرض البلقاء من الشام[١٠]. هذا وتشير كتب السيرة والطبقات إلى أن «زيد بن عمرو بن نفيل» كان واحداً من أولئك النفر في مكة الذين اعتزلوا الوثنية وعبادة الأصنام فساح في الشام والجزيرة والموصل يبحث عن الدين القويم واتصل بملوك غسان وقابل الرهبان والأحبار ومن بينهم أحبار أيلة إلى أن قُتل بميفعة حين عدا عليه قوم من بني جذام أو بني لخم قبل أن يدرك البعثة النبوية[١١]. وهناك بعض المصادر التي تذكر بأن زيد بن عمرو توفي في مكة ودفن بأصل حراء[١٢].أما ابن زيد بن عمرو «سعيد» فقد كان من السابقين الأولين البدريين شهد حصار دمشق وفتحها فولاه أبوعبيدة عامر بن الجراح عليها فكان بذلك أول من تولى عمل نيابة دمشق من المسلمين[١٣]. وقد تزوج سعيد ابنة فاطمة أخت الخليفة عمر بن الخطاب[١٤]. وإذا كان الغموض يحيط بمقتل «زيد بن عمرو بن نفيل» وسببه، إلّا أن المراجع تتفق حول نسبة «ميفعة» إلى البلقاء وإلى أن سكانها كانوا قوماً من جذام أو لخم، وأغلب الظن أنهم كانوا من جذام لأن منطقة استقرار هذه القبيلة الرئيسي كان في البقعة الجغرافية الممتدة من تبوك وحسْمى جنوباً إلى مشارف عمّان شمالاً ـ أي في الجزء الجنوبي من الولاية العربية التي صارت تُعرف منذ منتصف القرن الرابع الميلادي باسم فلسطين الثالثة، بينما استقرت بطون لخم في فلسطين لا سيما الأجزاء الجنوبية منها[١٥] ـ. ولكن من ناحية أُخرى يجب أن لا يغيب عن بالنا بأن نوعاً

---

٦ ـ Brünnow & von Domaszewski, *Die Provinicia Arabia,* (Strassburg, 1905), Vol. II, p.65; Fig. 647.

٧ ـ Piccirillo & Attiyat, p. 343.

٨ ـ نفس المرجع، ص : ٣٤٩ والملاحظتان ٣٨ و ٣٩.

٩ ـ البكري، (أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز)، "**معجم ما استعجم**"، عالم الكتب (بيروت، ب.ت) حـ ١ : ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥.

١٠ ـ ابن عبدالحق، "**مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**"، (بيروت، ١٩٥٥) مجلد ٣ : ١٣٤٤.

١١ ـ ابن حبيب، "**كتاب المحبر**"، (بيروت، ب.ت) ص : ١٧١ ـ ١٧٢.
المسعودي، "**مروج الذهب**" دار الفكر (بيروت، ١٩٧٣) حـ ١ : ٧٠.
ابن هشام، "**السيرة النبوية**"، دار إحياء التراث العربي.(بيروت، ب.ت) ص : ٢٣٩ ـ ٢٤٧.
ابن كثير، "**البداية والنهاية**"، دار الفكر (بيروت، ١٩٧٨) حـ ٢ : ٢٣٧ ـ ٢٤٣.

الذهبي، (شمس الدين محمد بن أحمد)، "**سيرة أعلام النبلاء**"، (بيروت، ١٩٨١) حـ ١ : ١٢٥ ـ ١٣٥.

١٢ ـ ابن كثير، حـ ٢ : ٢٤١.
الذهبي، حـ ١ : ١٣٣.

١٣ ـ الذهبي، حـ ١ : ١٢٥.

١٤ ـ نفس المرجع حـ ١ : ١٣٥.

١٥ ـ عبدالعزيز الدوري، «العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام»، "**المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام**"، (الجامعة الأردنية، ٢٠ ـ ٢٥ نيسان ١٩٧٤). الدار المتحدة للنشر (بيروت، ١٩٧٤) ص : ٢٥ ـ ٣٤.
محمد عبدالقادر خريسات، «دور العرب المتنصرة في الفتوحات»، "**الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام**"، تحرير : محمد عدنان البخيت وإحسان عباس (عمّان، ١٩٨٧) ص : ١٣٨ ـ ١٣٩.

J.S. Trimingham, *Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times.* London, 1979, p. 122-23.

من التمازج والتداخل في مناطق الاستقرار قد حدث بين القبيلتين بسبب صِلات القربى والنسب التي كانت تربط بينهما[١٦]. ومهما كان الأمر فإن جذام برزت منذ بداية القرن السابع الميلادي - ولا سيما بعد الاحتلال الساساني لسوريا (٦١٤ - ٦٢٩) كإحدى أقوى القبائل العربية إلى جانب كلْب. ويلاحظ أن هذا البروز رافق تقلص وضمور نفوذ الغساسنة. وقد أصبحت جذام من القوة والسيطرة بحيث قام البيزنطيون بتعيين «فروة بن عمرو الجذامي» عاملاً على القبائل العربية الموالية لهم بينما عُيِّنَ «روح بن زنباع الجذامي» على أعشار الروم[١٧]. ويبدو أن جذام قد تمكنت بالتدريج من احتواء فروع لخم والتفوق عليها، فقد عرف «سعيد بن روح بن زنباع» برأس أهل فلسطين، وكان والده قد تولى قيادة المقاتلة من جند فلسطين في حملة مسلم بن عقبة إلى الحجاز وأصبح من المقربين إلى الخليفة عبدالملك بن مروان[١٨]. هذا وكان الرسول عليه السلام قد كاتب بعض بطون جذام كجزء من سياسته الرامية إلى إستمالة قبائل التخوم إلى جانبه ويبدو أنه نجح في استقطاب بعضهم إلى الاسلام كما يتبين من إرسال عمرو بن العاص لجمع الصدقات المترتبة على جذام ولخم، وحين قامت الردة كان بنو الضبيب - وهم رهط من جذام - بين المرتدين[١٩]. وفي معارك الفتوح الكبرى كأجنادين وفحل واليرموك لم يكن موقف القبائل العربية المتنصرة - ومنها جذام - واحداً بل تفاوت بين المعارضة والحياد والتأييد[٢٠].

للأسف لا تتوفر لدينا معطيات كافية لاعطاء فكرة دقيقة عن الأعداد التي اعتنقت الاسلام من بين سكان البلقاء عامة والقبائل العربية خاصة خلال العقود التي تلت الفتح العربي الاسلامي ولكن يبدو أن أعداداً لا يُستهان بها بقيت محافظة على نصرانيتها. وقد كفلت شروط الصلح لأولئك الذين تمسكوا بدينهم المحافظة على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وأديرتهم مقابل أن يؤدوا ما عليهم من واجبات ومنها دفع الجزية، كما تُرك تصريف وإدارة الشؤون للمدن والقرى المفتوحة للزعماء المحليين الذين كانوا في الغالب من فئة رجال الدين كالبطارقة والأساقفة[٢١]. وتتضح هذه السياسة المرنة والسمحة في بناء العديد من الكنائس في العصر الأموي التي تم الكشف عن أربعة منها في مأدبا وماعين والقويسمة والشونة الجنوبية[٢٢]. بالاضافة إلى كنيسة خامسة ربما تكون قد شيدت في الربة (ربة مؤاب) سنة ٦٨٧[٢٣].

يلاحظ في الزخارف الفسيفسائية لمعظم هذه الكنائس ولا سيما في كنيستي ماعين والقويسمة اللتين شيدتا في خلافة عمر بن عبدالعزيز (٧١٧ - ٧٢٠) بأن الأشكال الآدمية والحيوانية فيها قد تعرضت إلى التشويه والتدمير. وقد نسب بعض الباحثين هذا التشويه إلى الخلفاء وبالتحديد إلى عمر بن عبدالعزيز أو يزيد بن عبدالملك. فالأب ديڤو يعتقد بأن الأشكال الآدمية والحيوانية في كنيسة ماعين كانت قد شُوهت في خلافة عمر بن عبدالعزيز وان الكتابة اليونانية المؤرخة إلى سنة ٧١٩ - ٧٢٠ إنما تشير إلى ترميم الزخارف الفسيفسائية[٢٤]. لكن إعادة الكشف عن هذه الأرضية الفسيفسائية ودراستها من جديد بينت بأن الكتابة معاصرة

---

١٦ - I. Shahid, *Byzantium and the Arabs in the Fourth-Century*. Washington, D.C., 1984, p. 387.

١٧ - محمد عبدالقادر خريسات، نفس المرجع ص : ١٣٩ - ١٤٦.

١٨ - الطبري، "**تاريخ الرسل والملوك**"، دار المعارف (القاهرة، ١٩٦٣) حـ ٥ : ٤٩٦، حـ ٧ : ٢٦٦.

١٩ - نبيه عاقل، موقف سكان بلاد الشام من الفتح، "**الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام**"، تحرير محمد عدنان البخيت (عمّان، ١٩٨٧) ص : ١٥٧ - ١٥٨.

٢٠ - نبيه عاقل، نفس المرجع، ص : ١٦٣.

خريسات، نفس المرجع، ص : ١٥١ف.

٢١ - وداد القاضي، مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح، "**الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام**"، (عمّان، ١٩٨٧) ص : ٢١٦، ٢٣٠.

٢٢ - M. Piccirillo, "The Umayyad Churches of Jordan," *ADAJ*, XXVIII (1984), p. 333-41.

٢٣ - F. Zayadine, 'Deux inscriptions grecques de Rabbat Mo'ab (Areopolis)', *ADAJ*, XVI (1971) p. 71-76.

٢٤ - R. de Vaux, 'Une mosaique Byzantine a Ma'in' *RB* XLVII (1938) p. 257-8.

للزخارف[٢٥]، مما يعني بأن التشويه لحق بالأشكال الحية بعد هذا التاريخ. أما الأب ميشيل بتشريللو فيميل إلى نسبة أعمال التشويه التي لحقت بالأشكال الآدمية إلى يزيد بن عبدالملك (٧٢٠ ـ ٧٢٤) اعتماداً على المصادر التاريخية التي تنسب إلى الخليفة إصداره مرسوماً يقضي بتدمير التماثيل والصور الموجودة في الكنائس[٢٦]. لكن مثل هذا المرسوم وما يحيط به من تفاصيل هي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة تجعلنا نرتاب في مدى صحته وتدفعنا إلى نبذه لسببين رئيسيين : **أولهما** أن يزيد بن عبدالملك نشأ وتربى في النعيم ونضارة العيش مما دفعه إلى حُب الترف والزينة والاقبال على الغناء والمغنيات[٢٧]، وبالتالي لم يكن تلك الشخصية التي يهمها تدمير الصور في الكنائس. **وثانيهما** أنه لا توجد في المصادر التاريخية العربية المبكرة كتاريخ خليفة بن خياط واليعقوبي والطبري والبلاذري والمسعودي إشارة إلى هذا المرسوم الذي يرد ذكره في بعض المصادر اليونانية واللاتينية والعربية المتأخرة[٢٨]. هذا ويُلاحظ أن معظم المصادر العربية التي تذكر المرسوم ـ كمؤلفات الكندي وسقيروس ابن المقفع والمقريزي وابن تغربردي ـ قد كتبت في مصر ومن الممكن أن تكون قد استقت خبر المرسوم المنسوب إلى يزيد من مصدر مشترك يوناني أو سرياني.

من المناسب هنا التوقف قليلاً لاعطاء نبذة تاريخية عن حركة تحطيم الصور (ICONOC-LASM) التي شغلت الكنيسة المسيحية ومجامعها الدينية في القرنين الثامن والتاسع والتي كانت مدار جدل ونقاش داميين. يُقسم تاريخ هذه الحركة إلى فترتين رئيسيتين : الأولى تمتد من سنة ٧٢٦ إلى سنة ٧٨٦ والثانية من سنة ٨١٥ إلى سنة ٨٤٣. ففي سنة ٧٢٦ شرع الامبراطور البيزنطي "ليو الثالث" بتنفيذ سياسته الرامية إلى إزالة التماثيل والصور الموجودة في الكنائس وبدأ بتحطيم تمثال السيد المسيح الذي كان ينتصب فوق "البوابة الذهبية" ـ إحدى المداخل الرئيسية المؤدية إلى القصر الامبراطوري ـ. وفي سنة ٧٣٠ عقد مجمع ديني بناءاً على طلب الامبراطور أكد فيه معارضة وجود الصور في الكنائس. طُبقت سياسة المعارضة هذه بحزم بلغ حد القسوة في عهد الامبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٧٥). وفي سنة ٧٨٠ ارتقت «إيرين» عرش الامبراطورية إثر وفاة زوجها (ليو الرابع) وكانت منذ البداية تميل إلى إلغاء المراسيم المتعلقة بمعارضة وجود الصور في الكنائس ولكنها لم تتمكن من اتخاذ قرار حاسم حول الموضوع حتى سنة ٧٨٦ وذلك لانشغالها في الحروب الخارجية مع السلاف والصراعات الداخلية التي نشبت بين المتنافسين على السُلطة. وفي السنة التالية ـ أي في سنة ٧٨٧ ـ عقد مجمع ديني في نيقية أُقر فيه رسمياً إعادة الصور والأيقونات إلى الكنائس. لكن هذا القرار لم يستمر طويلاً، ففي سنة ٨١٥ عاد الامبراطور "ليو الخامس" إلى سياسة معارضة وجود الأيقونات في الكنائس والذي ظل معمولاً بها إلى سنة ٨٤٣ حين تغيرت هذه السياسة مرة أُخرى[٢٩]. اختلف المؤرخون حول الدوافع التي كانت وراء هذه الحركة فمنهم من رأى فيها دوافع سياسية تهدف إلى الحد من نفوذ الكنيسة المتزايد بينما رأى آخرون دوافع دينية ترمي إلى تطهير الكنائس من الشوائب والطقوس التي صارت تقترب من الوثنية نتيجة إظهار الاحترام المتزايد تجاه الأيقونات والذخائر الدينية التي أُضفيت عليها صفة القداسة إيماناً بقدرتها على إيجاد المعجزات[٣٠]. مهما كانت الدوافع الحقيقة فإن جذور حركة تحطيم الصور تمتد إلى القرن

---

٢٥ ـ Piccirillo, Umayyad Churches, p. 341.

٢٦ ـ نفس المرجع، ص : ٣٤١، الملاحظة رقم «١٩».

٢٧ ـ حسين عطوان، "**الوليد بن زيد**"، عرض ونقد (بيروت، ١٩٨١) ص : ١٥ ـ ٦٠.

٢٨ ـ A.A. Vasiliev, 'The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid II, A.D. 721,' *Dumbarton Oaks Papers* nos, 9-10 (1956) p. 25-27.

٢٩ ـ A.A. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire,* Madison, Wisconsin, (1958) Vol. I, p. 251-68; 283-87.

٣٠ ـ E. Kitzinger, 'The Cult of Images in the Age before Iconoclasm', *Dumbarton Oaks Papers,* Vol. 8 (1954) p. 85-150, especially p. 121ff. G.E. Von Grunebaum, 'Byzantine Iconoclasm and the influence of the Islamic Environment,' *History of Religions,* Vol. II. 1 (1967) p. 1-10.

السادس وربما إلى ما قبل ذلك، والمرسوم الذي كان قد أصدره "ليو الثالث" سنة ٧٣٠ بإزالة الأيقونات من الكنائس لم يكن إلّا نهاية لمرحلة طويلة من التطور[٣١].

في ضوء هذه النبذة التاريخية يبدو واضحاً أن تشويه الصور الآدمية والحيوانية الذي يلاحظ في بعض الكنائس التي شيدت منذ القرن السادس وما بعده إنما يعود إلى اتباع سياسة فرضتها السُلطات البيزنطية وأيدتها الهيئات الكنسية وليس إلى مرسوم أصدره أحد الخلفاء الأمويين.

بعبارة أُخرى فإن السكان المسيحيون أنفسهم ـ وليست السُلطة الاسلامية ـ كانوا مسؤولين عن أعمال التشويه تلك. ومما يؤيد هذا القول هو ما نلاحظه في الزخارف الفسيفسائية نفسها حيث نجد أن الأشكال الآدمية والحيوانية في العديد من الكنائس في الأردن ـ كماعين والقويسمة وأُم الرصاص وغيرها ـ وقد شُوِّهت بعناية ثم رممت بحرص بالغ لتغيير معالم الصور الآدمية والحيوانية واستبدالها بعناصر زخرفية أُخرى مما يشير إلى إستمرار استعمال تلك الكنائس في تأدية الأغراض التي أُقيمت من أجلها.

يجدر بنا الآن العودة إلى الزخارف الفسيفسائية في كنيسة القديس اسطفان والمؤرخة إلى سنتي ٧٥٦ و ٧٨٥ ـ أي إلى الفترة التي كانت فيها حركة تحطيم الصور في أوجها ـ مذكرين بأن الصور الآدمية والحيوانية فيها قد لحقها التشويه مما يثير بعض التساؤلات. فمثلاً هل يشير أحد هذين التاريخين إلى سنة رصف الأرضية الفسيفسائية والآخر إلى ترميمها ؟ أم أن التاريخين يشيران إلى أعمال الترميم فقط وأن الأرضية الفسيفسائية كانت قد رُصفت من قبل ؟ فإذا كان الأمر كذلك فمتى رصفت الأرضية الفسيفسائية ؟ إن الفقرة الواردة في التقرير المنشور حول كنيسة اسطفان واكتشافه تشير باقتضاب إلى أعمال الترميم وبشكل يحيطه الغموض إذ تذكر بأن هذين التاريخين (٧٥٦ و ٧٨٥) يؤديان إلى النتيجة بأن الأرضية الفسيفسائية للكنيسة هي أعمال ترميم لاحقة أُنجزت من قِبل فريق من صناع الفسيفساء الذين رغبوا في إبقاء أسمائهم مجهولة كما هو واضح من الكتابة الموجودة في الجناح الجنوبي للكنيسة وترجمتها (يا رب تذكر خدمك من صُناع الفسيفساء الذين تعرف أنت أسماءهم)[٣٢] انتهى الاقتباس. هل يعني هذا أن الأرضية الفسيفسائية كلها مرممة أم أن الترميم اقتصر على جزء منها ؟ من الصعب إعطاء إجابة قاطعة في ضوء المعطيات المتوفرة ولكن هذا لا يمنع من إبداء بعض الآراء وطرح بعض الاحتمالات التي قد تفيد في الوصول إلى الاجابة الصحيحة. وأول هذه الآراء هي أن سنة ٧٨٥ في الكتابة الموجودة عند أرضية الدرجة المؤدية إلى حنية الكنيسة والتي تعرضت للتشويه والترميم كما يلاحظ ناشرا التقرير[٣٣] كانت في الأصل سنة ٥٨٥. إذ أن هذا التاريخ يتناسب مع فترة نشاط الأُسقف سرجيوس في منطقة مأدبا والذي شيدت في عهده كنيسة القديس اسطفان كما هو واضح من الكتابة اليونانية التي تعطي التاريخ المحرف سنة ٧٨٥[٣٤]. إذا كان ما ذهبنا إليه من تحريف التاريخ صحيحاً وأن التاريخ الحقيقي هو سنة ٥٨٥ فإن ذلك يعني أن هذه الكنيسة معاصرة تقريباً لكنيسة الأُسقف سرجيوس المجاورة لها والمؤرخة إلى سنة ٥٨٧[٣٥]. وهنا تجدر الاشارة إلى أنه في زمن هذا الأُسقف الذي تركز نشاطه في مأدبا وضواحيها ما بين السنوات ٥٧٤ ـ ٥٩٨ شيدت العديد من الكنائس والمنشآت الدينية الأُخرى[٣٦]. ومما يدعم نسبة كنيسة القديس اسطفان إلى سنة ٥٨٥ هو وجود الأشكال الآدمية والحيوانية ضمن الزخارف الفسيفسائية الأصلية قبل أن تتعرض إلى التشويه في فترة لاحقة. إذ لا يُحتمل إضافة مثل هذه العناصر الزخرفية إلى الأرضية الفسيفسائية فيما لو تم رصفها في الفترة ما بين ٧٥٦ ـ ٧٨٥ أي عندما وصلت حركة تحطيم الصور إلى أوجها. كذلك يلاحظ في النماذج المعمارية التي تمثل سبعة مدن

---

٣١ ـ Kitzinger, *op. cit.* p. 85.
Von Grunebaum, *op. cit.*

٣٢ ـ Piccirillo & Attiyat, *op. cit.* p. 347.

٣٣ ـ نفس المرجع، ص : ٣٤٧، والملاحظة رقم ٢٥.

٣٤ ـ نفس المرجع، ص : ٣٤٧ (لترجمة هذه الكتابة) عطيات، ص ٢٥.

٣٥ ـ نفس المرجع، ص ٣٤٤.

٣٦ ـ نفس المرجع، ص ٣٤٤، الملاحظة رقم «١٧».

من الأردن، والتي تبين في الغالب المدن الهامة التي كانت تتمتع بمراكز أبرشية، عدم ورود اسم «البتراء» ضمن تلك المدن علماً بأنها كانت المركز الأسقفي الرئيسي في فلسطين الثالثة. ولعل السبب في ذلك يعود إلى إنتقال المقعد الأسقفي الرئيسي إلى ربة مؤاب في فترة لا يمكن تحديدها على وجه الدقة ولكن ربما يكون هذا الانتقال قد حدث في الربع الأخير من القرن السادس[٣٧]، أما الملاحظة الثانية حول الأرضية الفسيفسائية في كنيسة القديس اسطفان فتتعلق بالكتابة الموجودة في حنية الكنيسة بالقرب من المذبح والمؤرخة إلى سنة ٧٥٦. هنا يُلاحظ أن الزخارف الفسيفسائية الموجودة في هيكل الكنيسة تقتصر على الأشكال الهندسية وما يُعرف بزخرفة قوس القزح التي تعتمد في تأثيرها الجمالي على التدرج في الألوان وتظليلها، وهي تشبه الأرضيات الفسيفسائية التي كُشف عنها في خربة المفجر القريبة من أريحا والتي تُعرف خطأ باسم قصر هشام[٣٨]. بعبارة أُخرى لا نلاحظ هنا أثراً لحيوان أو طير أو شجرة علماً بأنه في كنائس القرن السادس كان هذا المكان - أي حنية الكنيسة - هو الموقع المفضل لرسم المذبح أو شجرة الحياة مُحاطة بحيوانين متقابلين. لذا فإنه من الممكن نسبة هذه الزخارف الموجودة في الحنية إلى سنة ٧٥٦ كما هو مبين في الكتابة اليونانية.

من كل ما سبق نستنتج بأن الأرضية الفسيفسائية بما فيها من نماذج معمارية وأشكال آدمية وحيوانية كانت قد رصفت في نهاية القرن السادس. وفي حوالي منتصف القرن الثامن تعرضت الصور الآدمية والحيوانية إلى التشويه والتدمير نتيجة حركة تحطيم الصور التي سنتها السُلطات البيزنطية ورافق هذه العملية بعض أعمال الترميم وإعادة زخرفة حنية الكنيسة بعناصر هندسية بحتة.

وإذا كانت ميفعة حصناً أو فسطاطاً يقطنه قوم من جذام أو لخم - كما تذكر المصادر العربية - فإن ذلك يعني أن هؤلاء حذوا حذو أقربائهم من المناذرة والغساسنة وبني كعب في نجران الذين كانوا يتبارون في إنشاء البِيَع وزخرفتها بالفسيفساء والذهب[٣٩].

د. غازي بيشة
دائرة الآثار العامة
عمّان - الأردن

---

٣٧ - يعتقد الدكتور فوزي زيادين ان المقعد الأسقفي انتقل من البتراء إلى الربة في بداية القرن السابع اثر الفتوحات العربية الاسلامية.

F. Zayadine, 'Deux inscriptions grecques de Rabbat Mo'ab,' p. 76.

٣٨ - R.W. Hamilton, *Khirbat al-Mafjar: An Arabian mansion in the Jordan Valley*, Oxford, 1959, pls. LXXVI: A, LXXIX; LXXXIV; LXXXVI.

٣٩ - البكري، "**معجم ما استعجم**"، حـ ١ : ٦٠٣.